مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 49 (شتاء 2002)، ص 7

مقابلة مع سماحة السيد محمد حسين فضل الله
بشأن أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001
في الولايات المتحدة الأميركية وتداعياتها*

أجرى المقابلة: أحمد خليفة، خالد عايد،
صقر أبو فخر، سمير صراص

حررها وأعدها للنشر: خالد عايد

■ سماحة السيد، نحن معنيون، كما كثيرون في أنحاء العالمين العربي والإسلامي، بما يجري الآن من أحداث، من حرب على أفغانستان وما تطرحه هذه الحرب من إشكالات فقهية ودينية وسياسية، ونحن حريصون جداً على أن نسمع رأيكم فيما يجري. بكلام آخر، هذه الحرب التي تشنها الولايات المتحدة الأميركية على أفغانستان تسميها هي حرباً ضد الإرهاب، وتدّعي أنها للقضاء على تنظيم القاعدة وعلى حركة طالبان التي تحميه. في المقابل، تقول حركة طالبان وبن لادن إن هذه حرب صليبية، أي حرب دينية لا حرب أمنية أو سياسية، ويقولان إنها حرب ضد الاستعمار. في الوقت نفسه، هناك دعوات في العالم الإسلامي إلى مساندة أفغانستان، دعوات تذهب إلى أكثر من ذلك؛ إلى أن يهب المسلمون إلى إرسال المجاهدين إلى أفغانستان للجهاد. في الحقيقة نود أن نعرف رأيكم في توصيف هذه الحرب، وكيف ترونها؟

□ هناك دائرتان لعنوان الحرب: الدائرة الأولى هي الحرب على أفغانستان، والدائرة الثانية ما تسميه الولايات المتحدة الأميركية الحرب على الإرهاب. أمّا الحرب على أفغانستان، فإنني أتصور أنها انطلقت لتكون حرباً نفسية من أجل تنفيس الاحتقان الشعبي الأميركي إزاء ما جرى في الولايات المتحدة من أحداث فاجأت هذا الشعب الذي كان يعيش الاسترخاء الأمني كما لو كان الشعب الوحيد في العالم الذي لا تتحداه الأحداث الأمنية، لأنه هو الذي يقلق الأمن في العالم ولا يستطيع أحد أن يقلق أمنه بفعل القوة الضاربة المهيمنة سياسياً واقتصادياً وأمنياً، إلى جانب أنه

* أُجريت المقابلة في بيروت، بتاريخ 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 2001.

فقد ثقته بالإدارة الأميركية، وبالاستخبارات بالذات، التي لم تستطع أن تحتمل وقوع مثل هذا الحدث؛ وهو مسؤولية الاستخبارات، ولا سيما الاستخبارات المركزية الأميركية. هذا، إضافة إلى أن أميركا فقدت عنفوانها أمام العالم، عندما دخلت في حالة انعدام الوزن لعدة ساعات. وأصبحت في نظر العالم، الذي كان ينظر إليها بصورة الدولة الأعظم، كبقية الدول الأُخرى عرضة لأي إرهاب من أية جماعة تملك بعض التخطيط، وبعض الخبرة، وبعض الشجاعة والقوة. لذلك كان المطلوب البحث عن كبش فداء وطرح اسم بن لادن و"قاعدته" في الإعلام، لأنه اسم موجود على لائحة الإعلام الأميركي في ما تتحدث عنه من القوى المضادة لها في تفجير السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا وغيرهما. وكان بن لادن وتنظيمه "القاعدة" هما كبش الفداء. وكانت طالبان تمثل الحركة – النظام، الذي يؤوي القاعدة ورئيسها. ومن الطبيعي أن من غير الممكن أن تسلّم طالبان، بحسب المعلومات الأميركية، بن لادن و"قاعدته" تحت تأثير العنوان الإسلامي الذي لا يجوز أن يُسلّم مسلم لكافر بحسب المصطلحات، وتحت عنوان دور بن لادن في تقوية نظام طالبان ودور "القاعدة" في حماية نظام طالبان من خصومه الداخليين. لذلك كانت أميركا تعرف منذ البداية أن طالبان ستتورط، كما كانت تعرف في أثناء الحرب على العراق، في قصة احتلاله الكويت، أن صدام سيتورط. ولذلك أعطت العالم انطباعاً بأنها سعت لحل المسألة بالطريقة السلمية في مفاوضات مع طالبان التي رفضت تسليم بن لادن للمحاكمة وتسليم "قاعدته"، على الرغم من أن طالبان قالت إنها ليست مقتنعة بتورط بن لادن، وأن على أميركا أن تقدم الإثباتات على ذلك، وأنها توافق على تقديمه لمحكمة إسلامية حيادية. لكن أميركا كانت تعرف أن هذا لا يرضي عنفوانها، وأن كل ما له علاقة بجريمة ضد أميركا يجب أن تحاكمه محكمة أميركية، ولهذا أصرّت على محاكمة المتهمَيْن الليبيَّيْن في أميركا، ولولا الظروف الدولية فوق العادة وإحراج أميركا أمام محاصرة ليبيا، لما وافقت على أن تقدمهما إلى محكمة هولندية.

وهكذا، كانت الحرب في أفغانستان حرباً نفسية، بهدف تنفيس الاحتقان الشعبي الأميركي، بالإضافة إلى الجوانب الأُخرى المتمثلة في أن دولة كبرى، بحجم أميركا، لا يمكن أن تتحرك وتضرب حجراً واحداً لتصيب عصفوراً واحداً فقط، ما دام من الممكن أن تصيب أكثر من عصفور سياسي واقتصادي وعسكري. ومن هنا رأت أميركا أن تجعل الحرب على أفغانستان عنواناً كبيراً لحرب عالمية ضد هذا البلد الفقير المستضعف المدمّر. ولهذا أرادت للاتحاد الأوروبي، الذي بدا متحفظاً يطالب بالتعقل ودراسة الأمور بشكل دقيق جداً، أن يتورط في الحرب تحت عنوان معاهدة الحلف الأطلسي، عندما قدمت إليه معلومات قالت دول الاتحاد أنها اقتنعت بها، وهي أن "القاعدة"

ورئيسها هما وراء هذه التفجيرات، الأمر الذي يجعل من المسألة عدواناً خارجياً ضد أحد أعضاء الحلف، وبالتالي يفرض على دوله المساعدة. وهكذا أعطت أميركا الحرب صفتها الدولية، كما لو كانت حرباً عالمية، وأعطت للحلف الأطلسي دوراً جديداً كان يبحث عنه عندما سقط الاتحاد السوفياتي. ثم من الطبيعي أن تجتذب أميركا روسيا التي يعتبر اجتذابها حيوياً ومهماً لهذه الحرب، على الرغم من وجود مشكلات بين أميركا وروسيا على المستوى العالمي، وعلى مستوى المنطقة، وعلى مستوى أفغانستان بالذات. لكن روسيا شعرت بأنها تستطيع أن تحصل من أميركا على بعض الشروط، مستغلة حاجة أميركا إليها. ونحن نعرف أن علاقات الدول تخضع للمصالح ولا تخضع للمبادىء.

وهكذا انطلقت هذه الحرب بعد أن دخلت روسيا في جزء منها، وهيّأت الجو من خلال الدول المرتبطة بها، مثل طاجيكستان وأوزبكستان، لتعطي أميركا حرية الحركة. ولعبت أميركا على الخلاف بين باكستان والهند، وهكذا اختارت باكستان، التي كان رئيسها يريد اعترافاً دولياً جديداً بنظامه بعد أن رفض الاعتراف بنظامه بشكل ديمقراطي، يعني على أساس اللعبة الديمقراطية، لأنه تم بانقلاب عسكري، بالإضافة إلى المصالح الأُخرى. وهكذا تمت اللعبة لتضرب أميركا عصفور الاقتصاد بالسيطرة على موارد المنطقة ولو في المستقبل من خلال الخطة، أو العصفور العسكري، باعتبار أن أميركا تبحث عن قواعد عسكرية في تلك المنطقة لتستكمل كل خطتها في نشر قواعدها العسكرية في العالم. هذا بالإضافة إلى الضغوط السياسية المستقبلية على روسيا من جهة، وعلى الصين من جهة أُخرى، وهكذا. لذلك هي حرب بدأت نفسية وتحولت إلى حرب سياسية واقتصادية بأسلوب عسكري، تماماً كمن يريد أن يضرب الضعيف ضربة قوية يُخلع لها قلب القوي.

أمّا الحديث عن أنها حرب دينية، كما صدر عن بن لادن، ففي الواقع ليس للحرب صفة دينية لكن هي حرب المستكبرين على المستضعفين، وحرب المصالح الدولية ضد الذين قد يربكون هذه المصالح، سواء كان ذلك من خلال الصراع الدولي في الساحة، أو في المشكلات الاقتصادية، أو ما إلى ذلك؛ إنها حرب على المسلمين، وهذا صحيح، لكن ليس من الضروري أن تكون حرباً دينية على نحو الحرب الصليبية ضد الإسلام. إنني لا أتصور أن القضية انطلقت من هذا، مع العلم أن الحلف الأطلسي، وعلى رأسه أميركا، أعلن حربه على الإسلام بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، عندما كان هذا الحلف يبحث عن عدو ورأى أن العدو هو الإسلام. ومن الطبيعي أن الحرب على المسلمين، وتركيز العنوان الإرهابي بشكل رئيسي على المواقع الإسلامية، مع إضافة بعض المواقع غير

الإسلامية، من باب رفع العتب، أو حفظ ماء الوجه من دون أن تستخدم أية قوة ضدها، قد يكونان حرباً على الإسلام من حيث طبيعة النتائج، وإن لم تكن حرباً على الإسلام من خلال العنوان الكبير الذي تحركت به. لذلك لا بد من أن ننظر إليها، كشعوب إسلامية وعربية، وكشعوب مستضعفة، أنها حرب المستكبرين على المستضعفين. وعلينا أن نتدبر أمرنا في التخطيط لمواجهة هذه الحرب، والتخطيط بقوة نفسية عالية كي لا نسقط في الحرب النفسية قبل أن تمتد إلينا الحرب العسكرية والاقتصادية.

▪ كأنني أستنتج من كلامكم، وهذا شيء يشارك فيه الكثيرون، أنه ليس من المؤكد أن بن لادن كان وراء عمليات التفجيرات التي حدثت. لنترك هذه النقطة جانباً. إنما بن لادن أيضاً بارك هذه العمليات التي تمت في مدن أميركا. الآن، في الرأي العام العربي والإسلامي، في معظم الأقطار العربية والإسلامية، وربما في غيرها، هناك من يرى، أن ضرب المدنيين والأبرياء واستهدافهم هما عمل إرهابي ويجب أن يُدان بشكل واضح، وجهة أُخرى، يأتي خطاب ديني سياسي لبن لادن والظواهري وآخرين ليقول إن هذا هو جهاد ضد أميركا. وأحياناً هناك من يبدو كأنه يصدر فتوى، ويسند كلامه بالقول، مثلاً، إن المجتمع الأميركي كله مسؤول. وفي الحقيقة نود أن نعرف رأي الإسلام في هذه المسألة؟

▫ أولاً، نحن لا نؤكد علاقة بن لادن بالمسألة. من جهة إننا لا نملك إثباتات قضائية، لا بد من أن يحاكمها الإنسان بالعقل البارد، تؤكد هذه المسألة. أمّا مباركته لذلك فهي لا تمثل إثباتاً قضائياً، لأن الإنسان قد يبارك شيئاً، يرتاح إليه، أو يؤمن به، مما يفعله الآخرون من دون أن يتحمل مسؤوليته، هذا من جهة. أمّا من جهة الحديث عن طبيعة هذه الوسائل والأساليب في مواجهة السياسة الأميركية، أو أية سياسة، فإننا لا نوافق على ذلك إسلامياً، لا لأننا ضد الضغط على أميركا، وإنما لأنه لا يجوز أن نضغط على الإدارة الأميركية باستهداف الشعب الأميركي، أو الشعوب المقيمة بأميركا، أو الزائر لأميركا مما تمثل في الأشخاص الذين كانوا يركبون الطائرات التي فُجِّرت، أو الذين كانوا يقيمون بمركز التجارة العالمي أو يترددون عليه. إن القاعدة الإسلامية تقول "ولا تَزُر وازرة وزر أُخرى". وهي تنطبق على كل هؤلاء الذين قد لا تكون لهم علاقة بالإدارة الأميركية بكل سياساتها، لأنهم ليسوا أميركيين أو لأنهم أميركيون لا ينفتحون على قضايا السياسة الأميركية في الخارج، لأن الشعب الأميركي كما يقولون لا يملك اهتمامات بالسياسة الخارجية لدولته، وإنما يستغرق في السياسات الداخلية. لذلك لا يجوز من ناحية شرعية، فقهية، القيام بمثل هذه الأعمال. وهذا أمر أعلنّاه في اللحظات الأولى التي واجهنا فيها هذا الحدث، لنبيّن

أن القيمة الإسلامية الأصيلة ترفض ذلك، وتعتبر هذا إرهاباً لا استشهاداً، بقطع النظر عن الدوافع التي دفعت هؤلاء مما قد تكون دوافع طيبة من حيث تفكير أصحابها، لكنها وسائل خاطئة وغير منسجمة مع الخط الإسلامي. ولذلك فإن اعتبار هذا العمل جهاداً هو أمر خاطىء، لأن الجهاد لا يتم بهذه الطريقة.

- ماذا عن العمليات الاستشهادية في فلسطين؟

- إذا كان البعض يتحدث عن العمليات الاستشهادية في الساحة الفلسطينية التي يسقط فيها المدنيون، فإن هناك فارقاً بين الساحتين، لأن الساحة الفلسطينية هي ساحة الحرب الحارة التي تستخدم فيها إسرائيل كل ما تملكه من الأسلحة الأميركية، التي هيئت للحروب الكبرى، ضد الفلسطينيين العزّل الذين لا يملكون إلاّ حجارة، أو بعض الأسلحة الخفيفة، أو بعض قنابل الهاون، أمام طائرات الـ إف 16 وطائرات الأباتشي والصواريخ والدبابات والمدافع، والحصار الجغرافي والاقتصادي، إلى آخر ما هناك من جرائم إسرائيلية. وهذا ما يجعل الفلسطينيين، بفعل فقدان التوازن في موقفي الهجوم والدفاع، مضطرين إلى أن يواجهوا المجتمع الإسرائيلي بإسقاط الأمن الإسرائيلي. ومن الطبيعي أن إسرائيل التي تعتبر أن قتلها للمدنيين الفلسطينيين يتم على أساس خطأ، أو على أساس ظلمات الحرب، فإن ظلمات الحرب هي التي تبرر ما يقوم به المجاهدون في فلسطين من عمليات استشهادية، حتى لو كانت في مواقع مدنية.

لكن في أميركا ليست هناك حرب حارة كي يمكن أن يرد هؤلاء مثلاً بهذا الأسلوب. كما أن البعض قد يفكر في أن من الممكن أن نستعمل بعض الأعمال، التي هي غير مبررة من ناحية المبدأ، نتيجة الهدف الكبير على أساس أن الغاية الكبيرة تنظف الوسائل غير المشروعة الصغيرة. أمّا في القضايا الكبرى، فهناك رأي نتبناه وهو أن الغاية تبرر الوسيلة وتنظف الوسيلة، كما ورد في فتوى العلماء المسلمين أنه في حال احتماء الكفار بأسرى المسلمين فإن الفتوى تجيز قتل الأسرى المسلمين حين يتوقف تحقيق النصر على موت هؤلاء. لذلك فإننا نقول إن هذا الأسلوب، إن هذه الحركة التي حدثت من قبل القائمين بها أفادت أميركا ولم تفد الإسلام ولا المسلمين، إذا كان المسلمون قد قاموا بها. بل إنها أثرت تأثيراً سلبياً في المسلمين في كل العالم. وهيّأت لأميركا فرصة أن تقمع كل حركة رافضة للسياسة الأميركية في المنطقة على جميع المستويات باسم الحرب على الإرهاب، لأنها تتهم كل من يقف ضدها وضد المصالح الأميركية بالإرهاب. وقد استطاعت أن تفتح لأميركا أبواب العالم، وأن تجعل العالم خاضعاً لأميركا، في البداية على الأقل، بقطع النظر عمّا سيأتي من نتائج. ولهذا فإنني أقول للذين قد يفكرون في أن مثل هذه العمليات

مبرّر إذا كان في طريق الهدف الكبير، إن الهدف الكبير لا يتحقق بهذه الطريقة، بل من الممكن أن يحقق عكسه، بل إن الأحداث قد تحقق عكس هذا...

▪ سماحة السيد، في حرب الخليج الثانية، وبالتحديد يوم 16 آب/ أغسطس 1990، دعوتم المسلمين إلى أن يقفوا بقوة ضد الغزو الأميركي للخليج أيّاً يكن موقفهم من الرئيس العراقي صدام حسين. الآن، في هذه الحرب الدائرة في أفغانستان، ثمة دول إسلامية تتحرك بدعم أميركي، مثل تركيا أو باكستان، حتى طاجيكستان أو أوزبكستان. أيضاً نلاحظ أن الكثيرين من المسلمين بدأوا يفتون، بين مزدوجين، بأنه يجوز للمسلم أن يقاتل في الجيش الأميركي، وبالتحديد المسلمين الأميركيين. ما رأي سماحتكم في ذلك؟

▫ أطلقنا نداء في حرب الخليج الثانية، أو ما سُمِّي حرب تحرير الكويت، على أساس وعينا لأهداف هذه الحرب، لأن أميركا هيّأت للعراق كل المناخ السياسي لاحتلال الكويت، عندما امتنعت من وضع خطوط حمر على حدود الكويت، بينما وضعت خطوطاً حمراً على حدود السعودية. وقالت سفيرة أميركا في بغداد، غلاسبي، إنه "لا نتدخل في علاقتكم أو في حربكم في الكويت." لذلك كنت أفكر في ذلك الوقت – مع رفضنا لاحتلال الكويت حتى على مستوى الوحدة العربية، إذ لا يجوز أن تفرض الوحدة العربية على شعب بالقوة، وحتى مع رأينا في الرئيس العراقي صدام حسين، في نظامه وطبيعة حكمه وسوى ذلك – كنت أفكر، وأعلم بحسب تحليلاتي السياسية أن الهدف من حرب الكويت هو تركيز القواعد العسكرية الأميركية، مع هامش دولي للحلفاء، في منطقة الخليج. ولهذا كنت أعتبر أن الحرب الأميركية باسم تحرير الكويت كانت حرباً على الخليج كله، من أجل جعله تحت الاستعمار، أو تحت تأثير الاستكبار، ونفوذ الاستكبار الأميركي، كي يستطيع أن يهدد كل المنطقة، ويحصل على موقع استراتيجي، ليملك السيطرة على بحر الخليج كله. ولذلك كنت أقول إنه لا يجوز مساعدة أميركا في الحرب.

أما في الحرب على أفغانستان، فقد أصدرتُ فتوى، في الأيام الأولى، بأنه لا يجوز لأي جهة إسلامية، فرداً أو جماعة أو دولة، أن تساعد أميركا في هذه الحرب ضد أفغانستان لأن أميركا لا تملك أية شرعية لهذه الحرب، ولا سيما أنها لم تقدم أية إثباتات قضائية تدين طالبان، تدين بن لادن وجماعته. كما أنه ليس لأميركا الحق في أن تحارب نظاماً، بقطع النظر عن رفضنا لهذا النظام من ناحية إسلامية على أساس أنه لا يقدم الصورة المشرقة للإسلام، لمجرد إيوائه من تعتبرهم أميركا إرهابيين، لأن أميركا تؤوي الكثيرين، كما أوروبا تؤوي الكثيرين، ممن تعتبرهم أنظمتهم إرهابيين لقيامهم ببعض الجرائم ولا تجد ضرورة قانونية أو مبرراً قانونياً لتسليمهم.

لهذ أطلقنا الفتوى الشرعية في هذا المجال، ثم بدأنا الحديث حتى الآن عن رفض هذه الحرب الأميركية باعتبارها حرباً غير مشروعة. ولهذا أنكرنا على الذين أصدروا الفتاوى بجواز مساعدة أميركا، مع تصورنا أنهم لاحظوا ظروف الأميركيين المسلمين في أميركا الذين قد يصابون بسلبيات كبيرة في مواطنيتهم عندما يرفضون الحرب. لكنني أعتقد أن رفض الدخول في الحرب أمر متعارف عليه في البلاد الغربية؛ فهناك الكثيرون ممن رفضوا الحرب في فيتنام وما إلى ذلك. ولهذا فإن رفض الدخول في هذه الحرب لا يفقد المواطنين الأميركيين المسلمين مواطنيتهم، ولهذا قلنا إن الذين أصدوا الفتاوى تحت تأثير هذا الظرف الطارىء ليسوا على حق.

▪ سماحة السيد، عرّجتم في حديثكم على الشأن الفلسطيني عندما تحدثتم عن العمليات الاستشهادية. حبذا لو تناولتم الشأن الفلسطيني بشيء من التفصيل في ضوء أحداث 11 أيلول/ سبتمبر وما يمكن أن ينشأ عنها من مضاعفات وانعكاسات على القضية الفلسطينية، سواء على ما يسمى التسوية السلمية أو على صعيد مستقبل الانتفاضة وتطورها. وهناك متغيرات على أكثر من صعيد كما نعلم جميعاً، على صعيد عالمي وعربي، في العراق وفي لبنان ربما، وفي سورية. أيضاً هذه ناحية يمكن أن تتناولوها في ضوء ما يمكن أن تسفر عنه أحداث 11 أيلول/ سبتمبر من تداعيات.

▫ إنني أتصور أن السلبية التي واجهتها القضية الفلسطينية في أحداث أيلول/سبتمبر هي أنها أبعدت القضية الفلسطينية إعلامياً وسياسياً في اهتمامات العالم عن دائرة الضوء. وأصبح الحديث عنها أشبه بالحديث الهامشي الذي لا يثير القارىء أو المستمع في أي مكان في العالم، ولا سيما مع قيام الإعلام الأميركي بحجب كل الجرائم الإسرائيلية عن الإنسان الأميركي. لكن ضغط القضية الفلسطينية على المشروع الأميركي – التحالف الدولي ضد ما تسميه الإرهاب – جعل أميركا ومعها بريطانيا تحرك القضية لتكون في الواجهة البارزة، أو في الواجهة الرئيسية للإعلام وللخط السياسي باعتبار أنها دخلت مشروع التحالف الدولي لتؤثر سلباً في دخول الدول العربية والإسلامية هذا التحالف، وهو أمر حيوي وضروري لنجاح التحالف، باعتبار أن الإرهاب الذي طرح كعدو لا بد من التحالف للقضاء عليه، هو "الإرهاب الإسلامي". لذلك، فإن دخول الدول الإسلامية هذا التحالف يعتبر أمراً ضرورياً وحيوياً. وعندما دعيت الدول الإسلامية إلى دخول هذا التحالف أثارت مسألة الإرهاب الإسرائيلي باعتباره نوعاً من أنواع الإرهاب، وهو ما لم توافق عليه أميركا. وأثارت أيضاً، إلى جانب ذلك، أننا سواء سلّمنا بأن ما تقوم به إسرائيل هو إرهاب أو ليس إرهاباً، باعتبار ما تقوله أميركا إنها حرب في أرض متنازع بشأنها، كما هي الصيغة

الأميركية التي أكلت كل قرارات مجلس الأمن في اعتبار أراض الضفة الغربية وغزة، بما فيها القدس بعد 1967، أراضي محتلة، فإن الدول العربية والإسلامية قالت لأميركا إننا لا نملك دخول هذا التحالف، أمام شعوبنا، ما دامت الممارسات الإسرائيلي بهذا الحجم في فلسطين، لأن الشعوب لن تغفر لنا ذلك. أعرف أن الأنظمة هي، في أغلبيتها، أنظمة موظفة لدى الاستخبارات الأميركية، لا لدى الإدارة الأميركية، التي وظفت بعض الناس من ملوك وأمراء ورؤساء وما أشبه ذلك. لكن ضغط الشعوب وبعض ماء الوجه الذي يحتفظون به فرضا عليهم ذلك.

لهذا بدأت أميركا ترسل بعض الإشارات، وحاولت أن تخدع العالم العربي والإسلامي ببعض الضغوط في التفصيلات، كالانسحاب من المناطق التي احتُلت من مواقع السلطة الفلسطينية، وما إلى ذلك. ودخلت بريطانيا على الخط، ودخل الاتحاد الأوروبي باعتبار أنه أقرب إلى دول العالم العربي والإسلامي، وما زالت القضية تتفاعل. لذلك نحن نعتقد أن هناك إيجابية في إخراج القضية الفلسطينية إلى دائرة الضوء، وإثارة اهتمام العالم المعني بالمنطقة، وهو الاتحاد الأوروبي وروسيا، بالمسألة الفلسطينية من جديد. لكننا نتصور أن أميركا حتى الآن ليست مُعَدَّة للدخول بقوة في عملية التسوية، لانشغالها بمشروعها الذي يحتاج إلى استغراق كبير في كل المفردات المستجدة، وخصوصاً أن القضية الفلسطينية هي تماماً كقضية الرجل المريض الذي طال مرضه من وجهة نظر السياسة الأميركية، وهو ما يجعل حلها قابلاً للتأجيل. كما أن بوش، هذه الشخصية الضعيفة التي لا تملك رؤية سياسية واضحة للأحداث، لأنه لم يكن يملك هذه الاهتمامات السياسية في مستوى دولة كأميركا، لا يزال خاضعاً لهذا النوع من التجاذب بين أعضاء إدارته، بين ما يسمى الحمائم والصقور، ولا سيما بالنسبة إلى نائبه ووزير دفاعه. ويضاف إلى بوش أيضاً الكونغرس الأميركي الذي يسيطر عليه اللوبي الصهيوني، والذي هو بحاجة إلى موافقته على المشاريع التي يقدمها إليه.

لهذا فإني أتصور أن المرحلة ليست مرحلة الضغط الأميركي على إسرائيل من أجل التسوية بما يحقق للفلسطينيين حقوقهم المشروعة. لكن يبقى الدور الأوروبي، مضافاً إلى الدور الروسي، الذي يشغل العالم العربي والإسلامي والفلسطيني ببعض الزيارات والتصريحات والمفاوضات. وتبقى أيضاً مسألة استهلاك تجربة مشروع ميتشل، ومشروع إيقاف العنف وما إلى ذلك في هذه الدوامة التي يريد شارون أن تُبقي القضية الفلسطينية في داخلها. إن المرحلة ليست مرحلة التسوية وإنما هي مرحلة إثارة القضية في التداول من أجل استهلاك العرب تحت تأثير أن أميركا فتحت أكثر من نافذة، وأن على العرب أن يقتربوا منها ويحصلوا على ودّها بتسهيل أمورها بما تريده منهم

لعلهم يشجعونها على تقديم المزيد من ذلك. وهذا هو ما قلناه أكثر من مرة: إن أميركا تبيع كلمات للعرب وتبيع المواقف لإسرائيل، لأن العرب ما زالوا يعيشون تحت تأثير الكلمات، بينما إسرائيل كانت مع المواقف منذ بدايتها حتى الآن.

أمّا تأثير ذلك في العالم العربي فإنه قد يتحرك تحت تأثير أن أميركا تحاول أن تنثر القلق في المنطقة لتسجل اسم منظمة جهادية كحماس والجهاد وحزب الله، لتشغل الواقع السياسي في لبنان وفي العالم العربي: هل هذا إرهاب أم لا؟ وكيف نتصرف في مواجهته؟ وهو ما يخلق جدلاً داخلياً وخارجياً يشغل الناس عن القضية الأساسية على الطريق المعروفة في القضية الفلسطينية وفي القضايا العربية منذ البداية، وهي أن أفضل وسيلة لإشغال الناس عن القضايا الكبرى هي طرح القضايا الصغيرة التي تثير الجدل كي يستغرق الناس فيها، ونحن أمة تحركها المفردات الجزئية التي تأكل القضايا الكبرى.

- نحن هنا في العالم العربي والإسلامي لدينا مهمات كبيرة جداً، ولن نستطيع فرض رأينا ومصالحنا إلاّ إذا صار لنا وزن أكبر. في ضوء هذه الأحداث وما يجري، كيف تتصورون أن في إمكاننا السير إلى الأمام؟

- أن نتعلم من إسرائيل، لأنها الأستاذ؛ الأستاذ السياسي والأمني والاقتصادي، الذي يملك أغنى تجربة ناجحة في العالم. إن إسرائيل التي كانت تمثل خيالاً أسطورياً، حتى في نظر اليهود إذ كانوا لا يصدقون أن تقوم لهم دولة، ولا سيما في فلسطين، حاولوا أن يحولوا هذا الخيال إلى حقيقة، وحاولوا أن يأخذوا، في مسألة بهذا الحجم الخطر، بأسباب النفس الطويل، واللعب على قضايا الزمن، وخططوا بشكل دقيق جداً في دراسة كل مواقع القوى في العالم، وفي التركيز على نقاط الضعف في هذا الموقف أو ذاك، وفي عملية التكامل بين كل مفاصله في العالم. وهكذا كان الشعار إلى أورشليم، وهذا هو الذي جعل هيرتسل يقول في المؤتمر الصهيوني الأول إننا سندخل فلسطين بعد 50 عاماً. ودخلوها بعد 50 عاماً. ثم حاولوا أن يستفيدوا مما حدث في ألمانيا، مستغلين عقدة الغرب غير الألماني من النازية. وزيّفوا التاريخ، وقدّموا إحصائية 6 ملايين يهودي في المحرقة، وحاصروا العالم الغربي بمعاداة السامية، ومنعوا هذا العالم الذي يقدس الحريات من أن يناقش حتى على المستوى التأريخي الأكذوبة اليهودية، أقله في العدد الذي قتله هتلر من اليهود، وأهملوا كل من هم غير اليهود ممن قتلهم هتلر، ممن يزيدون في الإحصاء بحسب النقد التاريخي على اليهود. ثم حاولوا من خلال ذلك أن يقتربوا من مواقع القرار، فركّزوا كل قوتهم في فرنسا. ثم عندما جاء ديغول، وحاول أن يرسم بعض التحفظات في العلاقة بإسرائيل، وجهوا كل مواقعهم إلى

أميركا باعتبار أنها القوة الأولى في العالم. حتى إنهم استطاعوا أن ينفذوا وقتها إلى الاتحاد السوفياتي، وإلى كل مواقع القوة بالنفس الطويل، وأن يستخدموا الإعلام والسياسة، وأن يؤكدوا اقتصادهم من خلال حماية العلماء. فقد جمعوا كل علمائهم في العالم داخل كيانهم من أجل أن يكونوا حاجة للعالم. ولذلك أصبحت إسرائيل حاجة للصين والهند ولأكثر من دولة إفريقية، وحاجة حتى لبريطانيا وبعض الدول الأوروبية التي تستورد بعض أسلحتها، وحتى بعض خبراتها منها.

ثم لم يسمعوا، لم يقبلوا استماع أي نقد لما يقومون به داخل فلسطين، لأنهم يعتبرون أن مصلحة أمنهم وكيانهم فوق كل اعتبار. كانوا لا يخافون من أي جريمة يقومون بها لمجرد أنهم يحسبون حساب الانتقاد العام. وكانوا في حالات الضغط يحاولون أن يلعبوا على الأحداث وعلى المواقف بالطريقة التي تبعدهم عن دائرة الضغط القوي المباشر.

مشكلتنا أننا نحدّق بالعالم لأي عمل نعمله، ونخاف من احتجاج أميركي هنا، واحتجاج بريطاني هناك، وحملة صحافية وإعلامية هناك. إن علينا أن نحسب حسابنا، لكن علينا ألاّ نسقط أمامه، لأن المسألة أن هناك حرباً يهودية تتقاطع مع حرب استكبارية تحاول أن تسقطنا مع أنفسنا قبل أن نسقط في المعركة مع الآخرين.

- بعد أكثر من عام على انطلاقة الانتفاضة الفلسطينية، كيف تقوّمون مفاعيلها وتطوراتها؟

- إنني أعتقد أن الانتفاضة الفلسطينية استطاعت أن تجعل القضية الفلسطينية حقيقة سياسية لا يملك أحد في العالم أن ينكرها. واستطاعت أن تدخل اليهود في المأزق الأمني والسياسي، وأن تترك تأثيرها في اقتصادهم بقدرتها على الاستمرار لمدة أكثر من عام. واستطاعت على الأقل في أكثر من مكان في العالم، ولا سيما في العالمين العربي والإسلامي، بقدر ما يصل إعلام الجرائم الإسرائيلية إلى هذا العالم، استطاعت أن ترهق ضمير العالم بالجرائم الإسرائيلية وبضحايا الانتفاضة. الانتفاضة في استمراريتها هي الوحيدة التي يكون من الجريمة إيقافها. إنني أعتبر أن وقف إطلاق النار في هذه المرحلة قد يجعل الغرب يحملنا المسؤولية، كما يحملنا المسؤولية الآن، لكنه ينهي القضية الفلسطينية في وجدان الفلسطينيين. لا أتحدث عن فلسطين كلها، وإن كان ذلك في استراتيجيتنا هو استراتيجيتنا الإسلامية. لكن حتى فلسطين ما بعد 1967 لن نحصل عليها إلاّ إذا استمرت الانتفاضة وخلقت مأزقاً للغرب وللعالم العربي والإسلامي والإسرائيلي. قد لا نملك الصورة التفصيلية الواضحة لذلك، لكن ما حققته الانتفاضة في مدى هذه الحقبة من الزمن في حساب التطورات السياسية في المنطقة كبير جداً، على الرغم من كل الإعلام ومن كل الضحايا.

القضية الفلسطينية وجدت لتبقى، والدولة الفلسطينية أصبحت في ضمير العالم كله. المهم أن المعركة الجديدة هي ما هو حجم هذه الدولة؟

▪ سماحة السيد، نجحت الصهيونية – كما تكلمتم – في تضامنها وفهمها لموازين القوى وانخراطها في العصر. وبالمقارنة، فإن صورة الإسلام اليوم في العالم، أو في الغرب بالتحديد، هي صورة البيئة التي تنتج الإرهاب. الإسلام كأنه عصيّ على الحداثة. الإسلام الذي يقدّم هو الإسلام الجزائري مثلاً، أو إسلام أبو حمزة المصري وأبو قتاده وأبو بكري، كما تعلمون من مواقعهم وماذا يقولون. أنتم بالتأكيد، لا تعتقدون أن الإسلام عصيّ على الحداثة. لكن ما علّة الإسلام؟ لماذا لا ينخرط في العصر؟

▫ أنا لا أعتقد أن العلّة في الإسلام، إنما العلة في الإعلام الغربي المعادي، وفي مواقف دول الاستكبار ضد الإسلام، لأننا عندما ندرس حجم العالم الإسلامي، إنه يمثل في الإحصاء العددي ملياراً وأكثر من مئة مليون. لو أردنا أن ندرس إحصائية هؤلاء الذين يقومون بما يسمى الإرهاب، قد لا يصلون إلى 100,000، ولا سيما إذا دققنا في الإعلام. لدينا دراسة، ولا أضمن أنها دقيقة لكنها قريبة من الدقة، أن ما حدث في الجزائر إنما قام به الجيش الجزائري، بنسبة 90٪. وهذا مما فضحته الصحافة، حتى الغربية، بسبب الصراع الفرنسي – الأميركي في الجزائر. نحن لا ننكر أن هناك إسلاميين جهلة متخلفين لا يفهمون شيئاً من الإسلام، من الأمراء المراهقين، ربما قاموا ببعض هذه الأعمال. لكن من المؤكد أنهم لم يقوموا بمثل هذه المجازر، على الأقل بشكل كبير. إن الاستخبارات الجزائرية دخلت في هذه التنظيمات، واستغلت جهلها وتخلفها في ذلك. لماذا الإرهاب في مصر؟ لأن مصر لم تمنح الإسلاميين الذين يمثلون تياراً كبيراً فيها، حرية العمل السياسي، ولا سيما الإخوان المسلمين الذين يمثلون جانباً معتدلاً. ولو منحتهم العمل السياسي على الطريقة التي منحتها للحزب الناصري، أو للحزب الوطني، لأمكن لها السيطرة على كل هؤلاء بطريقة بسيطة جداً، إذ إنها تستطيع ضبط هؤلاء الإسلاميين من خلال صوغ معادلات وتوازنات معينة تضم مختلف الكتل الحزبية.

لهذا نحن نقول إن الإرهاب الذي حدث مما قد لا نوافق على الكثير منه، عندما يسمى الإرهاب، هو بفعل ضغوطات سياسية صادرت الشعوب العربية والإسلامية وحكمتها بقوانين الاستخبارات وبقوانين الطوارىء. ولذلك ليست هناك حالة إرهاب، ليس هناك وجدان إرهابي إسلامي. بل القضية أنك عندما تحاصر الإنسان في الزاوية وتسد عليه أي مخرج، لا بد من أن ينطلق بطريقة غير طبيعية. لماذا لا نتحدث عن الإرهاب في الغرب؟ ليس من الضروري أن يكون الإرهاب سياسياً.

إن حجم الجرائم في أميركا يفوق حجم الجرائم في أي مكان في العالم. لم يحدث عندنا في العالم العربي والإسلامي أن يمسك طفل مسدساً ويقتل رفاقه وأساتذته. ماذا عن متفجرة أوكلاهوما؟ ماذا عن الحرب في إيرلندا حيث تقع التفجيرات بين وقت وآخر؟ ماذا عن كل "المافيات" الموجودة في الغرب؟ لماذا لا يتم التركيز عليها؟ إن المسألة هي أنه عندما طُرح الإسلام كعدوّ جديد بديل من الاتحاد السوفياتي، في أول مؤتمر للحلف الأطلسي، كانت الخطة هي أن تلتقط كل السلبيات العنيفة التي في العالم الإسلامي، حتى على مستوى الأشياء الصغيرة، لتوظف ضد الإسلام. إنما نحن نعرف أن ما كان يحدث في صعيد مصر من خلاف بين المسيحيين والمسلمين كان ينطلق من حوادث عادية، كمسيحي له دَيْن على مسلم، أو كمسيحي خطف مسلمة، أو ما أشبه ذلك. لكنها كانت تطرح في العالم الغربي أن هناك ضغطاً على المسيحيين في مصر، وأن هناك مصادرة لحرياتهم وما إلى ذلك. نحن نعرف أن الحرب اللبنانية إنما انطلقت من خلال هنري كيسنجر الذي اراد أن يدفن القضية الفلسطينية في لبنان من خلال إثارة الحرب اللبنانية التي حُمّلت المقاومة الفلسطينية مسؤولية بدايتها. نحن نعرف أن الحرب كانت حرباً أميركية استخدمت نقاط الضعف عندنا. وإلاّ كيف تم إيقاف الحرب بقدرة قادر بمجرد اتفاق الطائف؟ إن الإسلام يدعو إلى الرفق، ويدعو إلى الأساليب الحضارية السلمية التي تحوّل الأعداء إلى أصدقاء. نحن نقرأ في قوله تعالى: "ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم." إتخذ، إختر الأسلوب الذي يحوّل أعداءك إلى أصدقاء. ونقرأ في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن الرفق ما وُضع على شيء إلاّ زانه وما رُفع عن شيء إلاّ شانه وإن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف." وأمّا قضية الجهاد، فالجهاد هو دفاعي ووقائي، "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم"، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين"، وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء." إن الجهاد في الإسلام دفاعي ووقائي، تماماً كما هو الكفاح والحرب في كل الحضارات العالمية. لكنهم حاولوا أن يجعلوا من الجهاد عنواناً للعدوان على الناس، وعنواناً لحمل السيف على كل العالم. ولكن هذا غير صحيح. المسلمون مضطهدون، وما يحدث في العنف ضد بعضهم البعض، أو ضد الآخرين، إنما ينطلق من ردة فعل على غياب الحريات، وليس فعلاً. أمّا الأشخاص الذين يعيشون الجريمة كمرض فهم موجودون في سائر أنحاء العالم.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx